مكة المكرمة

وقائع وأحداث في ضوء آيات الكتاب

إعداد

د. عبد الرحمن بن جميل بن عبد الرحمن قصاص

الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلاميّة

كلية الدعوة وأصول الدين- جامعة أم القرى

جوال: ٠٥٥٥١٢٤٧٥ – ٥٥٨٣٨٨٨

ص ب : ١٣٠٩٠ مكة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا، أمّا بعد؛

فإنّ من حكمة الله تعالى أن يختار زمانًا أو مكانًا معيّنًا فيجعل له خصائص ومميّزاتٍ دون غيره من الأزمان والأماكن، قال العظيم الحليم سبحانه: ﴿وربّك يخلق وما يشاء ويختار﴾ (القصص: ٦٨).

ومن الأماكن المحترمة قدرًا وشرعًا بلد الله الحرام مكة المشرفة-زادها الله تعالى تشريفًا وتعظيمًا- عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح: ((إنّ هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلاّ من عرّفها، ولا يُختلى خلاها)) متفق عليه [(١)].

وقد اخترتُ أن يكون بحثي هذا في موضوع يتعلق بأم القرى البلد الحرام، وتدور فكرة البحث وموضوعه حول ما ورد في كتاب الله تعالى ذكره من آياتٍ بيّنات تناولت وقائع وأحداثًا حدثت في مكة المكرمة من خلال دراسة منهجيّة موضوعيّة، فكان عنوان البحث:

(مكة المكرمة .. وقائع وأحداث في ضوء أيات الكتاب)

خطة البحث:

وقد احتوت خطة البحث على مقدمة وستة مباحث وخاتمة، على النحو التالي:

- مقدمة (وهي التي بين أيدينا).
- المبحث الأول : أسماء مكة وصفاتها الطبعية.
- المبحث الثاني : معالم مكة وأعلامها.
- المبحث الثالث: مكة في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام.
- المبحث الخامس: مكة في العهد المكي.
- المبحث السادس: مكة في العهد المدني.
- خاتمة.

أهمية الموضوع:

تبرز أهمية الموضوع وفقراته من حيث المحاور التالية:

أ- تعلق الموضوع بأحبّ البقاع إلى اللّه تعالى في الأرض التي اصطفاها.

ب- ويشرف الموضوع وعنوانه بشرف تعلقه وأخذه من كتاب اللّه تعالى.

ت- قلة وندرة من كتب عن هذا البلد الحرام من خلال آيات الكتاب العزيز.

ث- يُعدّ هذا البحث إحصاء لكل الآيات القرآنية المتعلقة بمكة المكرمة أمّ القرى.

أسأل اللّه تبارك وتعالى الكريم ربّ العرش العظيم الحيّ القيّوم الذي لا إله إلا هو أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وصلى اللّه وسلّم على نبيّنا محمد وآله وصحبه وذريّته. واللّه أعلم.

وكتب

د. عبد الرحمن بن جميل قصاص

مكة المكرمة

١٤٢٤/٥/٢٢هـ

المبحث الأول

أسماء مكة

وصفاتها الطبعية

أسماء مكة:

- لقد حبا الله تعالى مدينة مكة المشرفة بأسماء عديدة معيّنة، كل منها يزيدها تشريفًا وتعريفًا وتعظيمًا.

وقد قيل:

واعلم أن كثرة الأسامي تدل على أن المسمّى سامي.

وكثرة أسماء مكة تشير إلى عظمها عند الله تعالى وشرفها ومن ثمّ تبيّن مدى تعظيم البشرية لهذه المدينة المقدسة.

وسأذكر الآن أسماء مكة من خلال ما ورد في كتاب الله تبارك وتعالى، فمن أسمائها:

١- مكة:

وهو من أشهر أسمائها، وقد ورد في كتاب الله تعالى مرة واحدة فقط في سورة الفتح آية (٢٤)، قال الله العليم الحكيم سبحانه: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفرك عليهم وكان الله بما تعملون بصيرًا﴾.

قيل: إن معنى (مكة) مشتق من تمكّكْتُ العظم: أي أخرجتُ مخّه. وقيل: اشتقاقها من مكَّ الفصيلُ ضَرْع أمّه وامْتَكّه: إذا شرب ما فيه من اللبن. وعُبِّر عن الاستقصاء بالتمكُّك، وسُمِّيت مكة بذلك؛ لأنها كانت تمُكُّ من ظلم بها، ومن فيها من الظلمة: أي تدقهم وتهلكهم وتستأصلهم؛ فلا ترى فيها جبارًا إلاّ أُخِذ، ولا يقصدها سلطان بظلم إلاّ قُصِم [٢].

وقال صاحب العين [٣]: (سُمّيت مكة بذلك؛ لأنها وسط الأرض، كالمخ الذي هو أصل ما في العظم) [٤].

٢- بكة:

وقد ذكر الله تعالى ذِكره هذا الاسم مرة واحدة أيضًا في سورة آل عمران آية (٩٦)، فقال الله سبحانه: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدًى للعالمين﴾.

وقيل: إنّ (بكة) هي مكة، فالعرب قد تستبدل الباء بالميم، فتقول: ضربة (لازم) و(لازب)، وسبّد رأسه وسمّده: إذا نبت بعد الحلق حتى يظهر. وقيل: مكة اسم للبلد، وبكة اسم لبطنها؛ وهو جميع المسجد.

وقيل: بكة اسم لموضع الطواف؛ لأن الناس يتباكُّون فيه: أي يزدحمون.

وقيل: اسم للبيت خاصة؛ لأنه يبكُّ من قصده بسوء، ولأنه يبُكُّ أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيه بظلم، ولأن الناس يبتاكّوْن حوله [٥].

٣- أم القرى:

وقد ورد ذكر هذا الاسم في كتاب الله تعالى شأنه مرتين:

أ- قال الله الحكيم العليم سبحانه: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مباركٌ مصدّق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾ (الأنعام: ٩٢).

ب- وقال الله العلي العظيم سبحانه: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾ (الشورى: ٧).

ومعنى (أم القرى): أم الحواضر والأقاليم والمحافظات والمدن، وهي مركز الأرض، قال صاحب العين رحمه الله تعالى: (كل شيء ضُمّ إليه سائر ما يليه يُسمّى أمًّا) [٦].

قال عطاء بن أبي رباح[٧] وعمرو بن دينار[٨] رحمهما الله تعالى: (بعث الله رياحًا فشققت الماء، فأبرزت موضع البيت على حشفة بيضاء، فمدّ الله منها، فلذلك هي أم القرى) [٩]. وقال السُدّي[١٠]: (إنمّا سُمّيت أم القرى؛ لأنّ أول بيتٍ وضع بها)[١١].

٤- القرية:

سمّى الله تعالى شأنه ووصف مكة بأنها (قرية) في آيات منها: قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ (الزخرف: ٣١)، والمقصود بالقريتين - هنا-: مكة والطائف [١٢].

وفي سورة نبيّنا محمد عليه الصلاة والسلام يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وكأيّن من قرية هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ (محمد: ١٣).

والقرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، وللناس جميعًا[١٣].

٥- البلد الأمين:

إن مكة المكرمة من أشهر أسمائها: البلد الأمين، يقول الله العظيم سبحانه في كتابه الحكيم: ﴿والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين﴾ (التين: ١-٣).

ولقد دعا خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربّه تعالى أن يجعل هذا البلد آمنًا، يقول الله العزيز الحكيم سبحانه: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾ (البقرة: ١٢٦).

وقال الله العظيم سبحانه: ﴿وإذ إبراهيم قال رب اجعل هذا البلد آمنًا﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٥).

٦- البلد والبلدة:

البلد: هو المكان المحيط المحدود المتأثر باجتماع قُطّانه وإقامتهم فيه [١٤].

وسمّى الله تعالى ذكره مكة بالبلد وبالبلدة، فقال الله العزيز سبحانه: ﴿لا أقسم بهذا البلد. وأنت حلّ بهذا البلد﴾ (البلد: ١، ٢).

وقال الله السميع العليم سبحانه: ﴿إنّما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء﴾ (النمل: ٩١).

٧- المسجد الحرام:

وقد تكررت في القرآن الكريم الإشارة إلى مكة المكرمة باسم (المسجد الحرام)، قال الله العلم سبحانه: ﴿إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ (التوبة: ٢٨)، ويقول الله سبحانه: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ (البقرة: ١٩١)، وفي أحكام الحجّ خُصّ أهل مكة - حاضرو المسجد الحرام- بأحكام دون غيرهم، يقول الله العزيز العليم سبحانه: ﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحجّ فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحجّ وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ (البقرة: ١٩٦).

صفات مكة الطبعية:

اختصّ الله سبحانه وتعالى مكة المعظمة بصفات طبعية؛ منها:

١- أنها ﴿وادٍ﴾.

٢- ﴿غير ذي زرعٍ﴾.

وقد وردت هاتان الصفتان في دعاء سيدنا خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٧).

فمكة وادٍ من الأودية المباركة في الأرض، ومن اللطائف أن البقعة المباركة التي كُلِّم فيها موسى عليه الصلاة والسلام في صحراء سيناء كانت واديًا مقدسًا أيضًا، قال الله السميع العليم سبحانه: ﴿هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربُّه بالواد المقدس طوى﴾ (النازعات: ١٥، ١٦).

ومن صفات وادي مكة أنه غير مزروع، ولا يحتمل الزراعة كالبلاد العامرة بالحراثة والزراعة.

٣- أنها أم القرى ومركز الثقل في الأرض:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لتنذر أم القرى ومن حولها﴾ (الأنعام: ٩٢)، و(الشورى: ٧).

فمن صفات مكة الطبعية أنها في موقع يكاد يتوسط العالم كله شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا.

المبحث الثاني

معالم مكة وأعلامها

لقد كثرت معالم مكة وأعلامها، ففيها من المعالم الشيء الكثير التي اختصت به دون غيرها من بلدان العالم، فمن ذلك:

١- وجود البيت المحرّم فيها:

وهو أجلّ بيوت الله تعالى وأعظمها وأفضلها على الأرض،وهو أول بيت وضع للناس، يقول الله العظيم سبحانه: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدًى للعالمين﴾ (آل عمران: ٩٦).

وفي هذا البيت الحرام آيات بيّنات ومعالم نيّرات، ففيه: الكعبة المشرفة ومقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام والحطيم وزمزم والصفا والمروة، وهما من شعائر الله تعالى. يقول الله سبحانه عن البيت الحرام: ﴿فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، ويقول الله الخبير البصير سبحانه: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يطَّوف بهما﴾ (البقرة: ١٥٨).

٢- وجود عرفات بها:

وعرفات هي الأرض التي ينزلها الحاجّ يوم التاسع من ذي الحجّة، فيقف فيها حتى تغرب شمس ذلك اليوم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ (البقرة: ١٩٨).

٣- وجود المشعر الحرام بها:

المشعر الحرام هو ما يُسمّى بمزدلفة، أو جبل معروف فيها يطلق عليه المشعر الحرام، يقدم إليه الحاج بعد إفاضته من عرفات مساءً ليلة العاشر من ذي الحجة، يقول الله جل في علاه: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الظالمين﴾ (البقرة: ١٩٨).

٤- وجود منى بها:

وهي أرض عامرة كبيرة بمكة يعيش فيها الحجاج يومين أو ثلاثة من اليوم العاشر إلى اليوم الثالث عشر من ذي الحجّة، بالإضافة إلى يوم التروية؛ وهو اليوم الثامن من أيام شهر ذي الحجة، وقد أشار القرآن المجيد إلى ذلك فقال الله العظيم سبحانه: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ (البقرة: ٢٠٣)، وذُكر طرف وجهة من منى تلميحًا في قصة همٍّ نبيّ الله إبراهيم ذبح ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، حيث تمّ ذلك عند مواقع الجمرات الثلاث، قال الله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ (الصافات: ١٠١، ١٠٢).

٥- غار ثور:

وهو الغار الذي اختبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله تعالى عنه في أول هجرتهما إلى المدينة، وهو غار سُفْلي يقع بجبل ثور، وهو في حي الهجرة بمكة.

قال الله تعالى ذكره: ﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها﴾ (التوبة: ٤٠).

٦- بطن مكة:

قال الله تعالى: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرًا﴾ (الفتح: ٢٤)، قيل في ﴿بطن مكة﴾ قولان:

أحدهما: مكة نفسها. والآخر: الحديبية؛ لأنّ بعضها مضاف إلى الحرم [(١٥)].

وذكر الله سبحانه الشجرة، وهي في الحديبية قريبًا من حدود مكة.

قال الله سبحانه: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ (الفتح: ١٨).

المبحث الثالث

مكة في عهد إبراهيم
عليه الصلاة والسلام

إن أقدم النصوص القرآنية المختصة بالحديث عن مكة وردت في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فكأن مكة لم يكن لها ذكر ولا وجود من قبل هذا. ولا غرو في أن مكة يكون لها الشأن العظيم في حياة خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، فإنه أول من نزلها من المشاهير الأعلام، وخير من أنزل بها بعض أهله في ذلك الزمان.

وقد وردت في مكة خصوصًا في عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام نصوص وآيات قرآنية تبيّن أعماله عليه الصلاة والسلام، وتبرز دعواته المباركات لهذه المدينةالفاضلة.

أ- يقول الله العزيز الحميد سبحانه: ﴿وإذ ابتلي إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهنّ قال إني جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتي قال لا ينال عهد الظالمين. وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنًا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود. وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم. ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمتُ لربّ العالمين﴾ (البقرة: ١٢٤-١٣١).

ب- ويقول الله العليم سبحانه: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنًا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام. رب إنهم أضللن كثيرًا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم. ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون. ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء. الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء. رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء. ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٥-٤١).

ت- ويقول الله العظيم سبحانه: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئًا وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود. وأذّن في الناس يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍ عميق﴾ (الحج: ٢٦ ، ٢٧).

ث- ويقول الله الخبير البصير سبحانه: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين. فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ (آل عمران: ٩٥-٩٧).

ج- ويقول الله السميع العليم سبحانه عن سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وقال إني ذاهب إلى ربّي سيهدين. رب هب لي من الصالحين. فبشرناه بغلام حليم. فلما بلغ معه السعي قال يا بُني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ

افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين. فلما أسلما وتلّه للجبين. وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين. وفديناه بذبح عظيم. وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين﴾ (الصافات: ٩٩-١١١).

وبعد سرد هذه الآيات البيّنات التي أخذت جزءًا كبيرًا مهمًا من حياة نبيّ اللّه إبراهيم عليه الصلاة والسلام أقف الآن مع فوائد وفرائد من هذه الآيات الكريمات من خلال النقاط التالية:

١- ذكرت بعض هذه الآيات الحكيمة مواقع في مكة وفي المسجد الحرام خصوصًا، هي:

أ- مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام؛ وهو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند بناء الكعبة المشرفة، وقد أُمِرْنا أن نتخذه مصلى ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ (البقرة: ١٢٥).

وقد صلّى سيدنا محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خلفه بعد طوافه بالبيت، وقرأ عليه الصلاة والسلام الآية المذكورة سابقًا[١٦].

ومقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام إحدى الآيات البيّنات في بيت اللّه الحرام ﴿إن أول بيتٍ وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدًى للعالمين. فيه آياتٌ بيناتٌ مقام إبراهيم﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

ب- قواعد البيت: والمقصود بها أساسات الكعبة التي بُنيت عليها، وهي من حجارة صلبة قويّة جدًا، وكان يرفع هذه القواعد مع سيّدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ابنه الصالح النبيّ إسماعيل عليه الصلاة والسلام: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ (البقرة: ١٢٧).

ت- مكان البيت: قال الله تعالى ذكره: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ (الحجّ: ٢٦).

ث- المكان الذي همّ فيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ابنه الحليم إسماعيل عليه الصلاة والسلام؛ وهو المكان المعروف الآن بمنى وطرفها من جهة مكة، حيث مواقع الجمرات الثلاث. والله تعالى أعلم.

قال الله تعالى شأنه: ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ (الصافات: ١٠٢).

٢- دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربّه دعوات مباركات حيال مكة، وأهله وأمّته، ؛ فكانت ثمان عشرة دعوة، وهي:

أ- ﴿رب اجعل هذا بلدًا آمنًا﴾ (البقرة: ١٢٦)، ﴿رب اجعل هذا البلد آمنًا﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٥).

ب- ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ (البقرة: ١٢٦، ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٧).

جـ - ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ (البقرة: ١٢٧).

د - ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ (البقرة: ١٢٨).

هـ - ﴿وأرنا مناسكنا﴾ (البقرة: ١٢٨).

و - ﴿وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ (البقرة: ١٢٨).

ز - ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب و الحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ (البقرة: ١٢٩).

ح - ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٥).

ط - ﴿رب إنهن أضللن كثيرًا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٦).

ي – ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٧).

ك – ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٧).

ل – ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٧).

م – ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ (إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ٣٨).

ن – ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء﴾ (إبراهيم: ٣٩).

س – ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي﴾ (إبراهيم: ٤٠).

ع – ﴿ربنا وتقبَّل دعاء﴾ (إبراهيم: ٤٠).

ف – ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ (إبراهيم: ٤١).

ص – ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ (الصافات: ١٠٠).

٣- أول ما أمر الله تبارك وتعالى رسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مكة بعد أن بوّأ له مكان البيت وعيّنه له – أن لا يشرك بالله تعالى شيئًا قبل أن يأمره بأوامر أخرى، ونبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يكن من المشركين أبدًا؛ كما قال الله تعالى ذكره: ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتًا لله حنيفًا ولم يك من المشركين﴾ (النحل: ١٢٠)، ومع هذا فقد أُمر عليه الصلاة والسلام بأن لا يشرك بالله تعالى شيئًا قبل كل شيء وأمَر لخطورة الشرك بالله تعالى: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئًا﴾ (الحجّ: ٢٦).

وهكذا خاف إبراهيم عليه الصلاة والسلام على نفسه وعلى بنيه من الشرك بالله تعالى، فدعا الله تعالى بقلب صادق مبتهل إلى الرب

العظيم، فقال في دعائه: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ (إبراهيم: ٣٥).

٤- لقد قام إبراهيم عليه الصلاة والسلام ببناء الكعبة، ورفع قواعد البيت بمعاونة ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام امتثالاً لأمر الله تعالى له عليه الصلاة والسلام بذلك، وهو عمل صالح كُتب في صحيفتهما عليهما الصلاة والسلام؛ قال الله البصير سبحانه: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ (البقرة: ١٢٧)، وقد قام نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أثناء بنائه ورفعه قواعد البيت على حجرٍ سُمّي فيما بعد بمقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وكانا عليهما الصلاة والسلام يرددان أدعية مباركة أثناء البناء، منها: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ (البقرة: ١٢٧، ١٢٨).

٥- أنّ الله تعالى عَهِد إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام تطهير البيت الحرام بعد بنائه للطائفين والقائمين والعاكفين والركع السجود، وهذا التطهير يكون حسّيًا ومعنويًا، وهو من أجلّ الأعمال الصالحة، وقد قاما به عليهما الصلاة والسلام على الوجه الكامل، وهكذا ينبغي على الولاة والعلماء إسناد أمر تطهير البيت إلى من يتولى أمره من أهل الحسبة الأقوياء، وإلى من يتقن تطهير البيت حسّيًا ومعنويًا.

يقول الله تعالى ذكره: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ (البقرة: ١٢٥). وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئًا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ (الحجّ: ٢٦).

٦- لقد أمر اللّه تبارك وتعالى نبيّه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يؤذّن في الناس بالحجّ؛ أي يعلن الإذن الشرعي بالحجّ، ويُعلم الناس أجمعين بذلك، فبلغ صوته وخبره إلى العالمين بقدرة اللّه تعالى، وذلك من مكة المكرمة، فقد صعد عليه الصلاة والسلام على بعض جبالها ونادى بأعلى صوته. يقول اللّه العليم الحكيم سبحانه: ﴿وأذِّن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق﴾ (الحجّ: ٢٧).

٧- وكان لإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام سويًا موقف آخر بمكة، بل بمنى حين رأى الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في منامه أنه يذبح هذا الغلام الحليم ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فواعجبًا حين عرض الخليل على ابنه عليهما الصلاة والسلام أنه سيقوم بذبحه، وإن تعجب فعجبٌ ما كان من هذا الغلام الذي ما كان منه إلا التسليم لأمر اللّه تعالى بالذبح مع بالغ الاحترام والتعظيم والأدب: ﴿يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء اللّه من الصابرين﴾ (الصافات: ١٠٢)، فتجهزا جميعًا للأمر الإلهي، وقام الأب مقام الذابح، والابن مقام المذبوح، فأبدل اللّه هذا الحال، وفدى هذا الغلام الطائع عليه الصلاة والسلام بذِبحٍ عظيم، فأيّ بلاء هذا ﴿وإنّ هذا لهو البلاء المبين﴾ (الصافات: ١٠٦).

فيا للّه تعالى من هذه الصور الإيمانية، ،الاستقامة الدينية على أمر اللّه تعالى مهما كان وبأي صعوبة مشقة بلغت، وقد شهدت بعض فجاج مكة هذا الامتثال العظيم، فإلى من نزل بمكة أو عاش بها تهدي مثل هذه المواقف الرائعة التي يُقتدَى بها مقابل أوامر اللّه تعالى ونواهيه.

المبحث الرابع

مكة في العصر الجاهلي قبل الإسلام

إن العصر الجاهلي قبل الإسلام هو تلك الحقبة من الزمان التي امتدت من لدن غياب تأثير ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ودعوة إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فسادت فيهم أمور الجاهلية وعادات الجاهلية إلى ما قبل بعثة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

ولقد أشار القرآن المجيد مرارًا إلى مكة في العصر الجاهلي قبل الإسلام فذكر بعض نعم الله تعالى على ذلك العصر، وإلى بعض أفعالهم، فكان ذكر مكة والإشارة إليها في العصر الجاهلي قبل الإسلام تتركز في هذه النصوص التي سأسردها:

أ- يقول الله العليم سبحانه: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (التوبة: ١٧-١٩).

ب- وقال الله السميع العليم سبحانه: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم. رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ (قريش: ١-٣).

ت- وقال الله الرحيم سبحانه: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيرًا أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول﴾ (الفيل: ١-٥).

ث- ويقول الله علاّم الغيوب سبحانه وتعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ (الأنفال: ٣٥).

ج- قال الله تعالى ذكره: ﴿أولم نمكّن لهم حرمًا آمنًا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدّنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (القصص: ٥٧).

ح- وقال الله تعالى شأنه: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ (العنكبوت: ٦٧).

خ- وقال الله العظيم سبحانه: ﴿ألم يجدك يتيمًا فآوى. ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى﴾ (الضحى: ٦-٨).

وبعد هذه النصوص القرآنية الحكيمة التي تناولت مكة وبعض ما يحدث فيها في العصر الجاهلي لا بدّ أن نقف معها عدة وقفات:

١- امتنّ الله تبارك وتعالى بنعمة عظيمة على أهل الجاهلية ومن بعدهم، ألا وهي أن الله سبحانه جعل مكة حرمًا آمنًا لا تصل إليها أيدي قطاع الطرق ولا أسلحة المفسدين، ولا يُخِيفهم أحدٌ بإذن الله تعالى، بينما القرى والحواضر المجاورة لها تتعرض للخطف والنهب والسلب والقتل والخوف الشديد أحيانًا. فسبحان الله ربّ العالمين.

٢- بل إن هذا الأمن امتد إلى أن يشمل كل من ينتمي إلى هذا البلد الحرام وهو خارجٌ مكة، فتُحمى قافلته من السطو والاعتداء لأثر سُمعة عظيمة عليه، حيث إنه من سكان مكة وأهل المسجد الحرام، وبهذا استقرّت التجارة في مكة المشرفة، واستمر عطاؤها بفضل الله تعالى ومنّه صيفًا وشتاءً.

٣- وقصّ الله تعالى علينا قصة حمايته سبحانه لهذا البيت المعظّم حين أراد هدمه وإزالته أبرهة بجيشه وفِيَلَتِه؛ وهم ﴿أصحاب الفيل﴾ -كما سمّاهم القرآن- فأنزل الله تعالى بهم عذابه ورجزه بتلك الطير المرسلة بحجارة من سجيل، فأصبحوا كعصف مأكول لا يُؤْبه به بعد أن كانوا غُزاة شقّوا البلاد طولاً وعرضًا فأزالهم سبحانه في لحظات على أرض هذا البلد الأمين، وجعل كيدهم في تضليل.

وذلك قبل مولد النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

٤- كما جاءت المنّة الربانية الأخرى على أهل مكة في العصر الجاهلي وما بعده أن الله سبحانه وتعالى يسوق إلى هذه المدينة المباركة ثمرات كل شيء من نواحي الأرض المختلفة، وفيها إطعام ووفرة طعام لا يجوع فيها أحدٌ بإذن الله تعالى وفضله سبحانه.

٥- كانت العرب تقدم إلى مكة المكرمة تريد الحج والعمرة، وقريش تتولى سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام، وتتفاخر بذلك، ولكن ما نفع هذا العمل إن لم يكن بإيمان وإخلاص لله رب العالمين؟ وما الفائدة من أقوام يقومون بأعمال خيرية من إطعام وسقاية وعمارة وهم يكفرون بالله تعالى العظيم.

والأَوْلى أن يتولى عمارة المسجد الحرام المؤمنون الأتقياء لا الكفّار الذين يشهدون على أنفسهم بالكفر في أرض الحرم وأثناء النُسُك.

٦- اخترع الجاهليون بدعة يقومون بها بدل الصلاة والدعاء والابتهال والخشية عند البيت الحرام أثناء الطواف، فيُصفِّقون ويُصفِّرون ﴿مكاء وتصدية﴾. وهذا من أقبح الأفعال والأقوال التي يزعمون أنهم يتقربون بها إلى الله الكريم سبحانه.

٧- وذكر الله تعالى في هذا العصر كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وُلد وعاش يتيمًا، فآواه الله بفضله ومنّه وهداه وأغناه.

وولادة المصطفى صلى الله عليه وسلم يتيمًا بلا أب لها آثارها الحسنة على هذه الشخصية القدوة التي ينبغي عليها أن لا تتأثر بعادة الأب وأخلاقه وتوجهاته، بل تكون منطلقه لا تلوي على شيء ممّا لم تعهده في أب قدوة له. والله تعالى أعلم.

المبحث الخامس

مكة في العهد المكي

إن مشيئة الله تعالى وقدره سبحانه جعل خير المرسلين محمدًا صلى الله عليه وسلم يُبعث في خير بلاد الله أجمعين مكة، فاجتمع الفضلان، وانضم الخيران، فلله سبحانه الحكمة البالغة في هذا الاصطفاء والاختيار والقضاء والقدر.

لقد وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة أحد شعابها، ويُسمّى بشعب أبي طالب أو شعب علي رضي الله عنه فيما بعد بجوار المسجد الحرام، وذلك عام الفيل بعد أن ردّ الله كيد أصحاب الفيل ودمّرهم سبحانه تدميرًا، فمكث عليه الصلاة والسلام بمكة ثلاثة وخمسين عامًا، أربعون منها قبل البعثة، وثلاثة عشر عامًا، وهي الأخيرة الباقية من عمره صلى الله عليه وسلم بمكة بعد بعثته وقيامه بالإنذار.

فشهدت مكة آنذاك خطوات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يبلّغ الدعوة، ويُبشِّر ويُنذر عليه الصلاة والسلام بلا كلل ولا تعب. من هذه الأعوام الثلاثة عشر ثلاثُ سنين أولى مضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة السرية حتى أمره الله سبحانه وتعالى بالصدع بالدعوة والبيان، قال الله سبحانه: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ (الحجر: ٩٤).

فكانت عشرة أعوام باقية في الدعوة العلنية والصبر على الأذى مقابل الاستجابة لدين الله سبحانه.

وشهدت مكة في هذا العهد الذي استمر ثلاثة عشر عامًا تنزل القرآن المبين في أنحائها وبين ربوعها، فأوفت هذه السور المكية التي نزلت في هذا العهد تمام خمس وثمانين سورة، اتفق العلماء رحمهم الله تعالى على أن أول ما نزل من القرآن الكريم بمكة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ (العلق: ١)، واختلفوا في آخر ما نزل بمكة؛ فقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: سورة العنكبوت. وقال الضحاك[١٧] وعطاء رحمهما الله: سورة المؤمنون.

وقال مجاهد[١٨]: سورة المطففين [١٩].

فبهذا يلاحظ أن أغلب القرآن الكريم وسوره نزلت في هذا العهد، وامتازت سوره المكية بخصائص ومميّزات عن سوره المدنية تُراجع في مظانّها [٢٠].

وللقرآن الكريم عناية بمكة المكرمة في هذا العهد الميمون، فجاءت نصوص إلهية كثيرة تذكر مكة وما حدث بها في هذا العهد، وإليكم بعضًا منها:

١- قال اللّه العزيز سبحانه: ﴿إلا تنصروه فقد نصره اللّه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن اللّه معنا فأنزل اللّه سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة اللّه هي العليا واللّه عزيز حكيم﴾ (التوبة: ٤٠).

٢- قال اللّه الحكيم سبحانه: ﴿واذكروا اللّه إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيّدكم بنصره ورزقكم من الطيّبات لعلكم تشكرون﴾ (الأنفال: ٢).

٣- قال اللّه الخبير سبحانه: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر اللّه واللّه خير الماكرين﴾ (الأنفال: ٣٠).

٤- يقول اللّه القدير سبحانه: ﴿وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجنّ يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ (الأحقاف: ٢٩).

٥- وقال اللّه القادر سبحانه: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفرٌ من الجنّ فقالوا إنّا سمعنا قرآنا عجبًا يهدي إلى البرّ فآمنّا به. ولن نشرك بربنا أحدًا﴾ (الجن: ١، ٢).

٦- قال اللّه المقتدر سبحانه: ﴿وكأيّن من قرية هي أشد قوة من قريتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ (محمد صلى اللّه عليه وسلم: ١٣)

٧- قال اللّه الرحيم سبحانه: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من اللّه ورضوانًا وينصرون اللّه ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ (الحشر: ٨).

٨- ويقول اللّه سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يخرجون الرسول وإيّاكم أن تؤمنوا باللّه ربّكم إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾ (الممتحنة: ١).

٩- وقال اللّه تبارك وتعالى: ﴿يا أيها المزمل. قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلاً. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً. إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ (المزمل: ١-٥).

١٠- ويقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربّك فكبّر. وثيابك فطهِّر. والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر. ولربّك فاصبر﴾ (المدثر: ١-٧).

١١- قال اللّه العليم الخبير سبحانه: ﴿لا أقسم بهذا البلد. وأنت حلّ بهذا البلد. ووالدٍ وما ولد﴾ (البلد: ١-٣).

١٢- قال اللّه تعالى: ﴿والضحى. والليل إذا سجى. ما ودّعك ربّك وما قلى﴾ (الضحى: ١-٣).

١٣- يقول اللّه الحليم سبحانه: ﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما يعلم﴾ (العلق: ١-٥).

١٤- قال الله المجيد سبحانه: ﴿تبت يدا أبي لهب وتبّ. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارًا ذات لهب. وامرأته حمّالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾ (المسد: ١-٥).

١٥- يقول الله البصير سبحانه: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين. واخفض جناحك لمن تبعك من المؤمنين﴾ (الشعراء: ٢١٤، ٢١٥).

١٦- قال الله العليم سبحانه: ﴿وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أُنزل عليه إليه ملك فيكون معه نذيرًا. أو يُلقى إليه كنزٌ أو تكون له جنّة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلاّ رجلاً مسحورًا﴾ (الفرقان: ٧، ٨).

١٧- وقال الله العظيم الحليم سبحانه: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن الجاهلين﴾ (الحجر: ٩٤).

وبعد عرض هذه النصوص القرآنية التي هي عبارة عن نماذج من بعض الوقائع والأحداث التي حدثت بمكة في العهد المكي نحتاج إلى شيء من دراسة فقهها، وأخذ فوائدها:

١- شهد جبل حراء بمكة – وهو جبل بارز ببعض نواحيها الذي كان يتحنث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الليالي ذوات العدد- نزول أول القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شهر رمضان حين فجأه جبريل عليه السلام، فقال له: ﴿اقرأ﴾. فقال: ((ما أنا بقارئ)). فأخذه فغَطَّه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، فكرّرها ثلاثًا حتى قال له: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ قوله: ﴿ما لم يعلم﴾ (العلق: ١-٥)، فرجع بها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى داره، فدخل على خديجة يرجف فؤاده من هول ما رأى وسمع، فقال: ((زملوني)) إلى آخر الرواية الصحيحة [٢١].

٢- انقطع الوحيّ عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد تلك الحادثة فترة من الزمن يتهيأ بها عليه الصلاة والسلام لما بعدها، وبعد هذا الانقطاع نزل عليه الوحي مرة أخرى، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : ((بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلتُ: زمّلوني زمّلوني))، فأنزل اللّه: ﴿يا أيها المدثر. قم فأنذر﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ (المدثر: ١-٥)، فحمي الوحي وتواتر [٢٢].

٣- بعد أن استمرت الدعوة السرية في مكة المكرمة ثلاث سنين جاء الأمر الإلهي بتحويلها إلى دعوة جهرية استمرت عشر سنين أخرى. ابتدأت هذه العشر بعد أن أنزل اللّه تعالى على رسوله محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء: ٢١٤)، فجمع النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا، فقال لهم: ((من يضمن عني ديني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟)). فقال رجلٌ: يا رسول اللّه، أنت كنتَ بحرًا، من يقوم بهذا؟ فعرض ذلك على أهل بيته، فقال عليٌّ رضي اللّه عنه: أنا [٢٣].

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء: ٢١٤)، (ورهطك منهم المخلصين)[٢٤]، خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: ((يا صباحاه)). فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه. فقال: ((أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقيَّ ؟)). قالوا: ما جرّبنا عليك

كذبًا. قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم)). قال أبو لهب: تبًّا لك ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام. فنزلت: ﴿تبت يدا أبي لهب وتبّ﴾ (المسد: ١) (٢٥).

وهكذا استمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصدع بالحقّ وبما أُمِر، وأعرض عن المشركين.

٤- كثُر في مكة تعذيب الصحابة الذين أسلموا رضي الله تعالى عنهم على أيدي صناديد قريش وأكابر مجرميها، وشهدتْ رباعها ودُروها وساحاتها هذه المواقف الأليمة، والتي انتهت ببعضهم بالموت، كآل ياسر وغيرهم رضي الله عنهم، فقد كانوا في مكة قليلين مستضعفين، وما زال بهم هذا الأمر والقدْر حتى آواهم الله تعالى وأيّدهم بنصره ورزقهم من الطيّبات لعلهم يشكرون.

٥- أمّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد تعرّض في مكة لأنواع كثيرة من الأذى، منها: حِصاره في مكة في شعب أبي طالب، ومنعه من الخروج منها إلى الناس، ومحاولة قتله عليه الصلاة والسلام، ونفيّه وإخراجه من هذا البلد الأمين، واتّهامه عليه الصلاة والسلام بالسحر وغير ذلك، والاستهزاء به صلى الله عليه وآله وسلم وبدينه وبأصحابه رضي الله عنه.

وواجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم كل ذلك بالصبر والثبات على دينه، ومواصلة دعوته دون تردد أو تواني، بل كان صلى الله عليه وآله وسلم يتواصى هو وأصحابه بالحقّ وبالصبر.

٦- وكان من نعم الله تعالى وفضله سبحانه على هذه الدعوة بمكة أن سخَّر معاشر إخواننا من الجنّ يحضرون ويستمعون القرآن المبين ويُسلمون على يد رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم جماعات ولِبدًا، ويتذوقون آيات الكتاب وحلاوة الإيمان، ويخرجون إلى أقوامهم دعاة هداة بإذن الله تعالى وكرمه سبحانه.

٧- ثم كان خاتمة مطاف هذه الدعوة العامرة والرحلة الشاقة الطويلة؛ وهي الإذن بالهجرة إلى المدينة لينتهي بهذا هذا العهد المكي، وتزول تلك الآلام، وتسشرف الدعوة تلك الآمال، ولقد سمّى الله سبحانه وتعالى هذه الهجرة إخراجًا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته المهاجرين رضي عنهم وأرضاهم، وذلك من قبل قريش، فتركوا البلد العزيزة على قلوبهم، هجرة إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ويبتغون فضلاً من الله ورضوانًا. وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ (الحشر: ٨)، كما ذكر في كتاب الله تعالى ما حدث للنبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه في غار ثور – وهو جبل معروف ببعض نواحي مكة – أثناء مقدمة هجرتهما إلى المدينة، وتأييد الله تعالى لهما، وإنزال السكينة عليهما، وتثبيتهما وحمايتهما بعزته سبحانه وحكمته.

المبحث الخامس

مكة في العهد المدني

وبعد هجرة المصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة بدأ العهد المدني الزاخر بالأعمال الإسلاميّة العظيمة خلال عشر سنوات تقريبًا، بقي فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأغلب صحبه رضي اللّه عنهم بعيدين عن مكة بأجسادهم حتى كانت عمرة القضية (وتسمّى عمرة القضاء أيضًا) في ذي القعدة من العام السابع للهجرة، ثم غزوة فتح مكة في العام الثامن – أي التالي مباشرة – فردّ اللّه تعالى رسولَه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأصحابه إلى مكة فاتحين مهللين مكبّرين.

واعتنى القرآن الكريم بذكر مكة وما حدث فيها خلال هذه الفترة المهمة،وهذه بعض تلك النصوص القرآنية التي تناولت مكة وبعض وقائعها وأحداثها في هذه الفترة:

١- قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ (التوبة: ٢٨).

٢- قال اللّه الحليم سبحانه: ﴿إن الذين كفروا ويصدّون عن سبيل اللّه والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ (الحجّ: ٢٥).

٣- قال اللّه العظيم سبحانه: ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد﴾ (القصص: ٨٥).

٤- قال اللّه تعالى شأنه: ﴿إذا جاء نصر اللّه والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين اللّه أفواجًا. فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنه كان توابًا﴾ (النصر: ١-٣).

٥- قال اللّه السميع سبحانه: ﴿إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا. ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويُتمّ نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا وينصرك اللّه نصرًا عزيزًا﴾ (الفتح: ١-٣).

٦- وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا﴾ (الفتح: ١٠).

٧- وقال الله سبحانه: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا. ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ (الفتح: ١٨، ١٩).

٨- قال الله العليم سبحانه: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرًا. هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفًا أن يبلغ محلّه﴾ (الفتح: ٢٤، ٢٥).

٩- وقال الله العليم سبحانه: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا﴾ (الفتح: ٢٧).

١٠- قال الله العلي الأعلى سبحانه: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط. وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم﴾ (الأنفال: ٤٧، ٤٨).

١١- قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (الأنفال: ٣٣، ٣٤).

١٢- وقال الله القادر سبحانه: ﴿وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريءٌ من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خيرٌ لكم

وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشِّر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ (التوبة: ٣).

١٣- يقول الله العزيز الحكيم سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الهدي ولا القلائد ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانًا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ (المائدة: ٢).

وبعد ذكر هذه النصوص القرآنية المذكورة في مكة وبعض وقائعها وأحداثها خلال العهد المدني نقف مع شيء من فقهها ودروسها:

أ- لقد خرج من مكة في هذا العهد مهاجرون وفارّون إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على مدى السنوات الثمان إلى السنة السادسة الهجرية التي حدثت فيها غزوة الحديبية.

ب- وتقدم من مكة لقتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضي الله عنهم صناديد قريش وقادتها بجيشهم وعتادهم في العام الثاني للهجرة بطرًا ورئاء الناس، وصدًّا عن سبيل الله تعالى، ومحاولة للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه والإسلام، وذلك في غزوة بدر الكبرى ذات المشاهد العظيمة، والمواقف البطولية الرفيعة العالية من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ت- لقد استمر المشركون في مكة يتولون زمام حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في غزوة أحد والخندق يخرجون من مكة خير البقاع لقتال خير الخلق صلوات الله وسلامه عليه، فواعجبًا من صدّهم عن سبيل الله كثيرًا.

ث- وفي العام السادس للهجرة خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأصحابه رضي اللّه عنهم لأداء العمرة في شهر ذي القعدة، فصدهم مشركو مكة عن أداء العمرة، وهم بالحديبية معسكرون قرب مكة، حتى عُقد صلح الحديبية، وسمّاه اللّه تعالى ﴿فتحًا مبينًا﴾، وهناك تحت الشجرة تمت المبايعة المرضيُّ عن أهلها، ثم رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ومن معه إلى المدينة على أن يعودوا في العام القادم مؤدين العمرة، ولا يمنعهم أحد مهما كان.

ج- وفعلاً صدق اللّه تعالى رسول صلى اللّه عليه وآله وسلم الرؤيا بالحقّ، فدخلوا المسجد الحرام آمنين لا يخافون في عمرة القضاء أو القضية في العام السابع للهجرة، وهذه أول عودة إلى هذا البلد الأمين بعد بضع سنين، فلله الأمر من قبل ومن بعد، فوطأت أقدامهم أحب البقاع، ونزلوا خير الديار بفضله ومنّه وكرمه سبحانه.

ح- ثم كان العام الذي يليه، وهو عام فتح مكة، وأُزيلت أصنامها، واندحر أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومن ثم اهتدى الصادّون عن سبيل اللّه تعالى، ورؤي كيف يدخل الناس أفواجًا في الإسلام لا يترددون، ولا يمنعهم ولايصدهم صادٌّ عن سبيل اللّه سبحانه، فسبحان اللّه وبحمده.

خ- وممّا ذُكر في كتاب اللّه تعالى أن جاء الإعلان والأذان من اللّه تعالى ورسوله المصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الناس بوم الحج الأكبر في العام التاسع للهجرة حين أمَّر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أبا بكر رضي اللّه عنه على الحجّ ومعه عليٌّ وأبو هريرة رضي اللّه عنهما، ينا ديان في الحاج أن اللّه بريءٌ من المشركين ورسولُه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وغير ذلك ممّا يناديان به.

د- ومن ثم جاء المنع الإلهي للمشركين جميعًا أن يُقبلوا على مكة أو يقربوها ، فهي مدينة محرّمة عليهم، لا يجوز لأحد إدخالهم إليها تعظيمًا لشعائر اللّه تعالى.



خاتمة

الحمد للّه الذي تتم بنعمته الصالحات، وبعدُ؛

فهذا جهد المقل، واجتهادٌ من عبد يرجو رحمة اللّه تعالى ويخشى عذابه سبحانه.

ولقد منّ اللّه تعالى عليّ بتتبع كثير من هذه النصوص القرآنية من سورها، ومن ثم جمعها في هذا البحث الذي أسأل اللّه تعالى العظيم رب العرش الكريم أن يتقبله مني، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم سبحانه.

وإني بهذا أُتيح المجال، وأفسح المسير لمن أراد الدراسة المطوّلة البالغة لهذا الموضوع الشيّق، وغالب ظني أنه جدير أن يؤلف فيه مجلدٌ ضخم، وأن يتجّه باحثٌ في مرحلة الدراسات العليا إلى موضوعه.

وأخيرًا، فالحمد للّه على نعمائه، والشكر له سبحانه على توفيقه وامتنانه، وصلى اللّه وسلم على نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الهوامش

(1) رواه البخاري في الجزية، باب إثم الغدر للبر والفاجر (٣١٨٩)، ومسلم في الحج، باب تحريم مكة وصيدها (١٣٥٣).

(2) انظر: الأصفهاني: الراغب، مفردات القرآن (ص ٧٧٢)، والسمين الحلبي: عمدة الحفاظ (١١٩/٤، ١٢٠).

(3) اختلف أهل اللغة في مؤلف كتاب (العين)، فالمشتهر أنه للخليل بن أحمد الفراهيدي، والأزهري في تهذيب اللغة ينسبه إلى الليث بن المظفر.

(4) انظر: الفراهيدي: الخليل بن أحمد. العين (٢٨٧/٢).

(5) انظر: الأصفهاني: الراغب. مفردات القرآن (ص ١٤٠)، والسمين الحلبي. عمدة الحفاظ (٢٥٣/١).

(6) انظر: الفراهيدي: الخليل بن أحمد. العين (٤٣٣/٨).

(7) هو عطاء بن أبي رباح أسلم، الإمام شيخ الإسلام مفتي الحرم، أبو محمد القرشي، مولاهم المكي، يقال :ولاؤه لبني جُمح، ولد في أثناء خلافة عثمان، ونشأ بمكة. روى عن عائشة وأم سلمة وأمي هانئ وأبي هريرة وابن عباس وحكيم بن حزام، وغيرهم. وعنه: مجاهد وأبو إسحاق السبيعي وأبو الزبير وعمرو بن دينار، توفي رحمه سنة ١١٤هـ. (انظر: الذهبي. سير أعلام النبلاء ٧٨/٥)

(8) هو عمرو بن دينار، الإمام الكبير الحافظ، أبو محمد الجمحي، مولاهم المكي الأثرم، أحد الأعلام وشيخ الحرم في زمانه، ولد في إمرة معاوية سنة ٤٥ أو ٤٦ هـ. روى عن ابن عباس وجابر بن عبد الله وابن عمر وأنس بن مالك، وغيرهم. وعنه: ابن أبي مليكة وقتادة بن دعامة والزهري وأيوب السختياني وغيرهم. (انظر: الذهبي. سير أعلام النبلاء ٣٠٠/٥).

(9) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم (١٣٤٥/٤).

(10) هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الإمام المفسر أبو محمد الحجازي، ثم الكوفي الأعور السدي، أحد موالي قريش. روى عن أنس وابن عباس وعبد خير الهمداني، وعنه: شعبة والثوري وزائدة وإسرائيل، وغيرهم. توفي سنة ١٢٧هـ . (انظر: الذهبي. السير ٢٦٤/٥).

(11) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٣٤٥/٤).

(12) روي هذا التفسير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعن مجاهد وقتادة رحمهما الله تعالى. انظر: الطبري: محمد بن جرير. جامع البيان (١٨١/١١)

(13) انظر: الأصفهاني: الراغب. مفردات القرآن (ص ٦٦٩).

(14) انظر: المرجع السابق (ص ١٤٢).

(15) انظر: الطبري: محمد بن جرير. التفسير (٢٢/٢٣٦-٢٣٨)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٨٢).

(16) رواه مسلم مطوّلاً من حديث جابر رضي الله عنه في الحجّ، باب حجّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم (١٢١٨).

(17) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي، أبو محمد وقيل أبو القاسم، صاحب التفسير، كان من أوعية العلم، روى عن ابن عباس وأبي سعيد وابن عمر وأنس وسعيد بن جبير وغيرهم، وعنه: عمارة بن أبي حفصة وأبو سعيد البقال ومقاتل وعلي بن الحكم وغيرهم. وثقّه أحمد ويحيى بن معين وغيرهما. توفي رحمه سنة ١٠٢هـ. وقيل غير ذلك. (انظر: الذهبي، السير ٤/٥٩٨)

(18) هو مجاهد بن جبر الإمام شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي الأسود مولى السائب بن أبي يزيد المخزومي. روى عن ابن عباس وأكثر عنه في القرآن والتفسير، وعن أبي هريرة وعائشة وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم، وعنه: عكرمة وطاوس وعطاء وغيرهم، توفي سنة ١٠٣هـ وقيل غير ذلك. انظر: الذهبي. السير (٤/٤٤٩)

(19) انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن (١/١٩٣، ١٩٤).

(20) انظر: المصدر السابق (١/١٨٧-١٩١).

(21) رواه البخاري (٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

(22) رواه البخاري في التفسير، باب ﴿وثيابك فطهّر﴾ (٤٩٢٥)، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي (١٦١).

(23) رواه أحمد بن حنبل في مسنده (٢/١٦٥، ١٦٦، ٣٥٢، ٣٥٣) بإسنادين عن عليّ رضي الله عنه؛ أحدهما حسنٌ، والآخر صحيح كما قال أحمد محمد شاكر رحمه الله.

(24) كان هذا قرآنًا يُتلى، ثم نُسخت تلاوته، والله أعلم، كما قاله النوويّ وغيره. انظر: النووي: شرح صحيح مسلم (٣/٨٢، ٨٣).

(25) رواه البخاري (٤٩٧١، ٤٩٧٢)، ومسلم في صحيحه (٢٠٨).



المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.
- الأصفهاني: الراغب: مفردات ألفاظ القرآن. ت: صفوان الداوودي. دار القلم بدمشق. الطبعة الثانية. سنة ١٤١٨هـ.
- البخاري: محمد بن إسماعيل، الصحيح المختصر (صحيح البخاري). طبع مع فتح باري، بتحقيق محب الدين الطبري. (بدون تاريخ).
- ابن أبي حاتم: عبد الرحمن بن محمد بن إدريس. تفسير القرآن العظيم. ت: أسعد الطيب. طبعة نزار الباز بمكة. الطبعة الأولى. ١٤١٧هـ.
- ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل. المسند. ت: أحمد محمد شاكر. مصر عام ١٣٦٥هـ.
- الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان. سير أعلام النبلاء. ت: شعيب الأرنؤوط وآخرين. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة السابعة. ١٤١٠هـ.
- الزركشي: محمد بن عبد الله بن بهادر. البرهان في علوم القرآن. ت: محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث. القاهرة.
- السمين الحلبي: أحمد بن يوسف. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. ت: د. محمد التونجي. عالم الكتب ببيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٤هـ.
- الطبري: محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل آي القرآن. دار الكتب العلمية ببيروت. الطبعة الأولى. سنة ١٤١٢هـ. وطبعة دار التربية والتراث مكة.
- عبد الباقي: محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار الحديث بالقاهرة. الطبعة الثانية. ١٤٠٨هـ.الفراهيدي: الخليل بن أحمد. العين. ت: د. مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي. بغداد.

- القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن. دار إحياء التراث العربي. بيروت. عام ١٤٠٥هـ.
- مسلم: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي. تصوير دار الحديث.
- النووي: محيي الدين يحيى بن شرف. شرح صحيح مسلم. دار الفكر. بيروت.

الفهرس